الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

الثّالوث النّبيل

السّخاء والجود والكرم

360 ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY | KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEF American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في لحظةٍ خاطفة لا يلقى لها بال، تمتد يدٌ بمال يسير لسائل أو محتاج، فيشعر المُعطي بارتياحٍ عابر، ولكنْ هل تساءلنا يوماً: لماذا نشعر بالسعادة حين نعطي؟ أليس من المنطق أن نحزن لنقصان ما في أيدينا؟

فهذا التّناقض الظاهريّ يكشف سراً عميقاً في تكويننا الإنسانيّ بأنّنا خُلقنا للعطاء لا للاكتناز، فاليد المغلقة تتيبّس، والقلب المقبوض يتحجّر، بينما اليد السخية تظل نديّة طرية، والقلب الجواد يبقى حياً نابضاً، وفي هذا السرّ تكمن حقيقة الثالوث النبيل؛ السخاء والجود والكرم، فتلك الصفات التي لا تُضيف إلى رصيدنا الماديّ أمراً، ولكنّها تُضيف إلى جوهرنا الإنسانيّ قيمة...

فالكرم لا يعدّ فعلاً وحسب، إنّما هو هُويّة، فهو تلك النقطة العميقة في الذّات حيث لا يشعر الإنسان بالملكيّة الحقيقيّة لشيء، بل يرى نفسه وكيلاً مؤتمناً على نعم اللّه، فالكريم لا يحتاج إلى مناسبة ليعطي، ولا إلى سائلٍ ليبذل، لأنّ العطاء عنده أصبح كالتنفس، فغدا حاجة وجودية لا استجابة لمؤثر خارجيّ، وهو الأصل الذي تتفرع منه بقية الصفات، فهو كرم النفس قبل كرم اليد، وكرم الخُلق قبل كرم المال، كرم الوقت قبل كرم الذهب، وحين يتكرّم الإنسان بابتسامته، بوقته، بصبره، بعفوه، وبحسن ظنّه، فقد بلغ جوهر الكرم، وفي ذلك يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات،13)، فقد ربط اللّه الكرامة بالتقوى، لأنّ التقوى هي كرم الروح مع اللّه، وكرم السلوك مع الخلق....

أمّا السخاء فهو الساق التي نبتت من جذور الكرم، فهو ما يظهر فوق الأرض، وهو الكرم في حالة فعل، فحين تترجم السجية الكريمة إلى بذلٍ ملموس، فالسخي هو من سهُل عليه العطاء، فلا تتعثر يده، ولا يتلجلج قلبه، ولا تتصارع في نفسه الشكوك والحسابات، وهو على درجات؛ فمن السخاء أنْ تعطي الفائض، ومنه أنْ تعطي ممّا تحتاج، ومنه - وهو أرفعها - أنْ تعطي قبل أنْ يُطلب منك، فالنبيّ ﷺ كان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، حتى قال أنس بن مالك: "ما سُئل رسول اللّه ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه"(صحيح مسلم:2312)، فالسخاء تحرير للنفس من أسر الخوف؛ الخوف من الفقر، الخوف من المستقبل، أو الخوف من فقدان المكانة، فحين تعطي بسخاء، فأنت تقول للكون: أنا أثق باللّه أكثر من ثقتي بما في يدي.....

وفيما يتعلّق بالجود، فهو السخاء في أشدّ لحظات الحاجة، وهو أنْ تبذل وأنت أحوج إلى ما تبذله من الآخذ، فالجود تضحية واعية، اختيار صعب، وإيثار نادر، وهو لحظة تتجلّى فيها روح الإنسان في أسمى معانيها حين ينتصر على غرائزه الفطرية في حفظ البقاء والاستئثار بالموارد، وفي الجود قيل:"والجود بالنفس أقصى غاية الجود"، فالجود النهائيّ هو أنْ تبذل ذاتك لا مالك فقط، ووقتك الثمين لا فائضه، وجهدك وأنت مُرهق، وصبرك وأنت مُبتلى، والجود أنواع فمنه...

الجود بالوقت، فمن أعطاك من وقته فقد أعطاك من عمره، ففي عصر السرعة والانشغال، أصبح الوقت أثمن من المال...

والجود بالعلم، فهو كالشمعة، تُضيء ألف شمعة ولا تنقص، فقد قال ﷺ : "من علّم علماً فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل شيئاً"(صحيح ابن ماجه:198)....

والجود بالجاه والنفوذ، فمن أوتي جاهاً عند الناس أو نفوذاً، فاستخدمه في قضاء حوائج الناس، فقد جاد بما لا يُقدّر بثمن، فقد قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[النساء: 85]

والجود بالعفو، بأنْ تعفو عمّن ظلمك وأنت قادر على الانتقام، وتُضحي بكرامتك الجريحة، وتتنازل عن لذة الانتصار، فكلّ ذلك ابتغاء وجه اللّٰه، وفي ذلك قوله تعالى:﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وقال ﷺ: "ما زاد اللّٰه عبداً بعفوٍ إلا عزاً"(صحيح مسلم:2588)....

والجود بحسن الظن، ففي عصر الشك والتحليل النفسي، أصبح حسن الظن نادراً، فأنْ تحمل كلام أخيك على أحسن المحامل، وأنْ تلتمس له العذر، وأنْ تُحسن الظن بنيّته، فهذا جود معنوي عظيم، فقد قال ﷺ: "إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث"(سنن الترمذيّ:1988)...

والجود بالابتسامة والبشاشة، فقد قال ﷺ: "تبسّمك في وجه أخيك صدقة"(صحيح ابن حبان:474)، فالابتسامة لا تُكلّف شيئاً، لكنها تُعطي الكثير، وتُدخل السرور، تُذيب الجليد وتفتح القلوب...

هذا وقد ورد في القرآن الكريم آيات تحدّثت عن الإنفاق، وأعادت في ثناياه رسم خارطة روح العطاء،

فالآيات تصف الإنفاق كدليل قاطع على صدق الإيمان، فقد قال اللّٰه تعالى:﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(البقرة:3)، فالإنفاق يأتي مباشرة بعد الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة، كأنه الامتحان العملي الأول للإيمان، لكون المال هو أقرب شيء إلى النفس في عالم المادة، فمن استطاع أنْ ينفق ماله في سبيل اللّٰه، فقد برهن على أنّ اللّٰه أحبّ إليه من كلّ شيء....

وفي الآية القرآنية: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(البقرة:245)، ففي هذه الآية، سمّى اللّٰه الصدقة "قرضاً"، مع أنّه الغني الحميد الذي لا يحتاج، وفي هذا تكريم للإنسان، ورفع لشأن عطائه، وحين يتعهّد اللّٰه بالمضاعفة، فإنّه يُخرج العطاء من منطق الخسارة إلى منطق الاستثمار الناجح الذي لا تعرفه البنوك، استثمار يعطيك سبعمائة ضعف كبداية لا كسقف نهائيّ، وهذا وعد اللّٰه الذي يقول: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾(البقرة:261)، فمن ذا الذي يعطيك هذا العائد في الدنيا؟

هذا ولا يكتفي القرآن بمدح الجود، إنّما يذمّ البخل ذماً شديداً، لأنّ البخل ليس مجرّد صفة سيئة، بل هو مرض روحيّ يُفسد القلب ويُعمي البصيرة، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالى:﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر،9)، فالفلاح كلّه - في الدنيا والآخرة - مرهون بالنّجاة من الشحّ، لأنّ الشحّ يجعل الإنسان عبداً للمال بدلاً من أنْ يكون عبداً للّٰه، وفي ذلك قول اللّٰه تعالى:﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾(البقرة:268)، فالبخل يبدأ بوسوسة الشيطان بالخوف من الفقر، فيتحوّل الإنسان إلى كائن خائف، قلق، شكّاك، وبخيل، وهذه هي الخسارة الحقيقيّة...

ولو استوقفنا الكلم عند الكرم النبويّ لوجدنا النبيّ ﷺ أيقونة العطاء الحيّة، فقد كان جوده دون حدود ولا حسابات، فقد كان النبيّ ﷺ قرآناً يمشي، فإذا تحدّث القرآن عن الجود، رأيته متجسداً في شخصه الكريم، فمن أروع مظاهر جوده ﷺ أنّه كان يعطي قبل أنْ يُسأل، فقد جاءه رجل يسأله، فقال: "ما عندي شيء، ولكن استقرض عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه". فقال عمر: يا رسول اللّٰه، قد أعطيت فما كلفك اللّٰه ما لا تقدر عليه! فكره النبيّ ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول اللّٰه، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتهلّل وجه النبيّ ﷺ وقال: "بهذا أُمرت".(الأماني المطلقة، العسقلاني:158)....

ويُروى أنّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه، فقال له: "أتحبّ أنْ يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك"(صحيح الجامع، الألباني:80)، فالعطاء عنده ﷺ لم يكن مقصوراً على المال، بل يشمل كلّ ما ينفع الناس، حتى الكلمة الطيبة والابتسامة....

وفي عصرنا الحالي، لم يعد يكفي أنْ يكون العطاء بشكل فردي عشوائي، بل نحتاج إلى تنظيم الجهود وتوجيه الموارد بحكمة، فالجمعيات الخيرية، والأوقاف، والمؤسّسات الإنسانيّة، كلّها أدوات العصر لإيصال الجود، فما تقوم به من أعمال ترسم به خطوات نحو خارطة طريق لمجتمع الجود والكرم والسخاء...

فالصدقة الجارية، استثمار في الخلود، فأنت تبني مستشفى فيتعالج فيه الناس لعقود، تحفر بئراً فيشرب منه المسافرون لأجيال، تطبع كتاباً نافعاً فيُقرأ بعد مئة عام، يقول ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(مجمع فتاوى ابن باز).....

والتكافل الاجتماعي، يبني نسيجاً اجتماعياً متماسكاً، ويحوّل المجتمع من مجموعة أفراد منعزلين إلى جسد واحد، كما وصفه النبي ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(صحيح مسلم:2586)....

وتزكية النفس، تطهير للروح، فالمال فتنة، والقلب البشري ضعيف أمامه. قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر،20)، ويكمن تحرير النفس من سطوة المال بالعطاء، فقد قال اللّٰه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(التوبة،103)، فالصدقة مُطهّر للنّفس من الشّح والطمع...

ورغم كلّ هذه الطرق المتاحة لفعل الجود، إلاّ أنّه يواجه عوائق كثيرة منها...

وهم الاكتفاء الذاتي، فيعتقد الإنسان أنّه يملك ما في يده حقاً ذاتياً، وفي ذلك يقول القرآن مُصححاً هذا الوهم:﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(النور،33)، و﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(الحديد،7)، فالمال مال اللّٰه، ونحن مجرد مستخلفين فيه، وكلاء مؤقتون، ومن فهم هذه الحقيقة، سهل عليه العطاء...

والخوف من الفقر، فالشيطان يخوّف الإنسان من الفقر إذا أنفق، لكن اللّه يعد بالخلَف:﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾(سبأ،39)، والنبي ﷺ يؤكد: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد اللّه عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحد للّه إلا رفعه اللّه"(صحيح مسلم:2588)....

وانتظار الثراء، فكثيرون يقولون: "حين أصبح غنياً سأتصدق بسخاء"، ولكنّ هذا الأمر خداع للنفس، لأنّ السخاء صفة تُبنى بالتدريب لا بكثرة المال، فمن بخل وهو فقير، لن يسخو وهو غني...

والمنّ والأذى، فالقرآن يحذّر من آفة خطيرة تُفسد العطاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ (البقرة،264)، فالمنّ أن تُذكّر المتصدّق عليه بفضلك، والأذى أنْ تجرحه بكلمة أو نظرة...

وفي المقابل فإنّ للجود ثمار منها ...

البركة، بأنْ يكفيك القليل، وأنْ يُفتح لك من أبواب الرزق ما لم تحتسب، وأنْ يُحفظ مالك من الآفات...

ومحبة الناس، فالكريم محبوب، مُكرّم، تُفتح له القلوب قبل الأبواب....

والطمأنينة القلبية، فالعطاء يُورث سكينة عجيبة، لأنّه يُحرّر الإنسان من سجن الأنانية...

وتكفير للسيئات ورفع الدرجات، فقد قال ﷺ: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار" (شرح رياض الصالحين لابن عثيمين)، وقد قال: "من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرّج اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة"(صحيح مسلم:2580)، فالجود ليس مجرد فضيلة، بل هو كفارة وطهارة وارتقاء...

ونيل الظلّ يوم القيامة، فقد ذكر أنّ من السبعة الذين يظلّهم اللّه يو م القيامة رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه..

ومن هنا فقد وجب علينا أنْ نحيي ثقافة الجود من خلال البدء بالنفس، فالتغيير يبدأ من الداخل، بمحاربة الشحّ، وتدريب النفس على العطاء، والبدء بالقليل، وتربية الأطفال على الجود والعطاء، فالطفل الذي يتربّى على الجود يُصبح شاباً كريماً ورجلاً سخياً، والعمل على بناء مؤسسات خيرية محترفة تعمل بكفاءة، وتفعيل التطبيقات الخيرية، والتبرّع الإلكتروني، والحملات عبر وسائل التّواصل، ونشر القدوة الصحيحة،

فإذا أردنا أنْ ينتشر الجود، وجب أنْ نكون نحن الكرم والجود بأفعالنا، والعمل على إحياء فكرة الوقف لتبقى منافعه إلى يوم القيامة....

وبعد،

فيا رعاكم اللّٰه، يا من تشعرون في أعماقكم بنداء العطاء...

لا تؤجلوا، فالموت لا يُؤجل، والفرص تمرّ كالسحاب، فلربما كان في جيبكم الآن ما يُطعم جائعاً، أو يُداوي مريضاً، أو يُعلّم يتيماً، ولربما كان في قلبكم من الكلمات الطيبة ما يُفرّج كربة إنسان، ولربما كان في وقتكم من الفراغ ما يُسعد والداً مُسناً أو طفلاً مُحتاجاً...

فلا تنتظروا الثراء لتُصبحوا كرماء، فالكرم ليس في كثرة المال، بل في سخاء النفس...

ولا تخافوا من الفقر، فاللّٰه هو الرزّاق... ولا تُؤخروا إلى الغد، فأنتم لا تضمنون مجيء الغد...

فابدؤوا الآن، وتصدّقوا ولو بشقّ تمرة، بابتسامة، بكلمة طيبة، وبدعوة صادقة، فكلّ خطوة على درب الجود ترفعكم درجة في سلم الإنسانيّة، واعلموا أنّ حياتكم ستنتهي يوماً، وسيُحاسبكم اللّٰه عن كلّ نعمة أنعم بها عليكم:﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾(التكاثر،8)، ولن يكون السؤال: كم جمعتم؟ بل: كم أنفقتم؟ وكم نفعتم؟ و كم أسعدتم؟ وكم فرّجتم من كرب؟ وكم مسحتم من دمعة؟ فلا تجعلوا جوابكم آنذاك: "يا رب، خفت وبخلت وأمسكت" بل اجعلوه : "يا رب، أنفقت وأعطيت وبذلت، فأنت خير الرازقين"....

اللهمّ اجعلنا من عبادك الأسخياء الأجواد الأكرمين، الذين إذا أعطوا لم يمنّوا، وإذا منعوا لم يعتذروا، وإذا وعدوا أنجزوا...

اللهمّ طهّر قلوبنا من الشحّ والبخل، وارزقنا حبّ العطاء والبذل، واجعل أموالنا مباركة طيبة، وأعمالنا خالصة لوجهك الكريم....

اللهم آمين